مجلة الرائد

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :مستقبل الثقافة الإسلامية إلى اين ؟	الكاتب :أبو زيد المقرئ الادريسي

ننطلق في طرح هذا السؤال من قلق مشروع على مستقبل ثقافتنا القريب قبل البعيد ، في ظل تغول أخرق ، تمارسه القوى السيدة السائدة على مسرح كوكبنا ، وفي طليعتها الثقافة الأمريكية المستأسدة بمركبها الإعلامي المتفوق ، وبتنظيرها المبرِّر لسلوكاتها الإبادية ، مثل نظرية صدام الحضارات ونهاية التاريخ والعولمة الثقافية .

أقل ما يبرر هذا القلق ، بالإضافة إلى التفوق الساحق ، ذلك التاريخ الممتد عبر قرون ، من إبادات متواصلة لشعوب وثقافات بمسميات متشابهة ، لا يعدم الرجل الأبيض ، اليميني الصليبي ، المهووس بالصراع والهيمنة ، إليها من سبيل (انظر الصهيونية ، النازية ، ونهاية التاريخ لعبد الوهاب المسيري) .

هذه " السوابق " تكفي لإيقاظ ما تبقى من غريزة البقاء والحرص على الذات لدى أمتنا ، في ظل مؤشرات دالة على جدية هذا التوجه لدى الغرب الصليبي-الصهيوني .

وفي غياب دراسات مستقبلية عربية أو إسلامية جادة (باستثناء أبحاث المهدي المنجرة) واستناداً إلى نتائج الدراسات المستقبلية الأمريكية (جونزبت ، وباترسي أبو ردين - ١٩٩٨م) والفرنسية (هوك دو جوفنييل : رئيس الجمعية الدولية المستقبلية - ١٩٩٩م) ، فإن أهم ما يتوقع لعالمنا في العشرية المقبلة ، من تحولات ، هو :

نهضة الفنون ، بزوغ اشتراكية جديدة في الكتلة الشرقية ، عولمة أنماط الحياة ، انبثاق دور مهم لمنطقة المحيط الهادي ، انهيار نموذج الدولة الراعية التي تقوم بالتأطير الاجتماعي والثقافي والتربوي على نفقتها ، صعود النساء إلى الحكم ، ازدهار الإحياء الديني ، انتصار الفرد ، الهجرات الدولية المتسببة في الاضطرابات الديمغرافية والسياسية والطائفية ، تفاقم الفقر والأمية في العالم الثالث ، التأثير الخارق للتقنية الحديثة الذي سوف يؤدي إلى قطيعات جذرية في مجال التواصل والعلاقات والبحث والمفاهيم .

بإسقاطها على عالمنا الإسلامي ، نستنتج ما يأتي :

مجلة الرائد

العدد : ٢٤٢ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٤ ميلادي

عنوان المقال :مستقبل الثقافة الإسلامية إلى اين ؟	الكاتب :أبو زيد المقرئ الادريسي

سلباً : اشتداد الصراع بين الاتجاهين العلماني والإسلامي ، اكتظاظ المدن وتفاقم الهجرة الريفية وتقلص فرص العمل ، انهيار القدرة الشرائية وتفاقم الفقر والأمية والمديونية ، تغوّل العولمة واستمرار إجهاض المشاريع الإصلاحية ، احتمال اندلاع صراعات إقليمية تحركها جهات خارجية بأيدي عنصرية وطائفية داخلية .

إيجاباً : عودة الفرد المسلم إلى أصوله بحثاً عن الذات ، إلحاح الشعوب الإسلامية على الشورى والمشاركة ، بداية أفول الانبهار بالحضارة الغربية ، تهاوي العديد من النظم السياسية والاقتصادية والتربوية ، بلورة الفكر الإسلامي في العلوم الاجتماعية عبر دراسات علمية رصينة ولكن بطيئة .

إلا أن أخطر تحول يتعرض له العرب المسلمون ، هو التناقص المتتالي لنسبتهم داخل عموم المسلمين ، بل إن البنية الديموغرافية العربية تتعرض إلى فعل تهجين من المسلمين غير العرب وأحياناً من غير المسلمين ، مما يجعل بروز المقومات الأساسية للثقافة العربية في بعدها الإسلامي من خلال العناصر الثلاثة الآتية : العقيدة واللغة والتراث الإيجابي ، أمراً ملحاً .

الثقافة العربية الإسلامية ليس لها الآن من مستقبل إلا في بعدها الإسلامي ، ولا أقول هذا من منظور شعوبي لأنني عربي ، فرجوعاً إلى التاريخ لم يكن للثقافة العربية وجود حقيقي قبل الإسلام . يشهد عمر بن الخطاب ﷺ على عصره : « كان الشعر علم قوم ، لم يكن لهم علم أصح منه » . ولم تكن اللهجات متحدة ، وأحياناً ولا متقاربة « ما لغة حِمْيَر بلغتنا ولا لسانهم بلساننا » . أما سلم القيم فكان يعاني من اختلال تناقضي مريع : يقيم العربي الحرب غيرة على عرضه ، ولكنه « يكره فتياته على البغاء » ويمارس نكاح الاستبضاع! يقيم الحرب ذوداً عن جاره ، وأخرى يبدأ به عند شنه العدوان!

والثقافة العربية اليوم تواجه خطر الانقراض في وجه العولمة . هذه الثقافة العربية التي لم يكن لها وجود حقيقي إلا بالإسلام والآن ليس لها استمرار حقيقي إلا بالإسلام في وجه العولمة التي أصبحت تفرض سلوكاً لغوياً واقتصادياً رهيباً ، أرشد إليه - على سبيل المثال - الباحثان الاستراتيجيان الألمانيان : هانز بيتر مارتين ، وهارالد شومان في عملهما المتميز (فخ العولمة .. الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية) تضمن معلومات مخيفة عن تنميط الإنسان ، عبر صور جاهزة تمر عبر وسائل الإعلام ، لكي تزيل الخصوصية الثقافية للأمم ، وتخلق كائنات استهلاكية ، مستضبعة للثقافة الشعبية السطحية ، التي

تحولت إلى سلعة تجارية .

في العالم العربي بلغ التغوُّل الانجلو-فرنكفوني ، لغة وفكراً وسلوكاً اجتماعياً واقتصادياً وعقليا ، ذي الطابع الاستهلاكي ، مدى بعيداً ، يبين بأن ثقافتنا (بالمعنى الوظيفي للكلمة) مهددة بالانقراض ، بالنظر إلى الذي تعيشه أجيالنا الشابة من تغييب ثقافي ، وتخلف علمي بل واستقالة حضارية ، وانبهار مخيف بالغرب ، هذه الأجيال التي من المفروض أن تحرص على نقل مشعل ثقافتنا إلى القرون القادمة ، كي لا تنقطع بها سبل الاستكبار الثقافي المعاصر .

إن العالم العربي اليوم ، مهدد بأن يؤمرك على الطريقة السطحية السريعة ، بالمعنى الذي يتحدث عنه بيير بورديو حين تحليله للعولمة الإعلامية ، وأخشى أن واقعنا يجاوز ذلك إلى المستوى الذي يبسطه جون لاكاتوس في كتابه " تغريب العالم " . وهذان شاهدان من أهلها ، بعيداً عن الخطاب العولمي الإشهاري الذي يمثل نموذجه الأسوأ الكاتب الأمريكي اليهودي الشهير توماس فريدمان في كتابه " سيارة اللكماس وشجرة الزيتون " وغيره من الكتّاب المأجورين لدى الشركات العابرة للقارات التي تريد أن تسوق مفهوماً مخادعاً للعولمة حتى تمكن لغزوها الاقتصادي الشامل .

ليس للثقافة العربية اليوم ، سوى أن تتحصن في بعدها الإسلامي المنفتح على البعد الإنساني العالمي يشفيها من داء الانغلاق على البعد القومي الضيق . فالإسلام يرفض الانتماء على أساس اللون أو الدم أو اللغة أو الطبقة أو الجنس ، ويؤصل بالمقابل للانتماء الاختياري حين يصنف الناس حسب اعتقاداتهم .

أما الثقافة العربية المنغلقة فعاجزة حتى عن حل مشاكلها الداخلية فكيف بمواجهة العولمة الخارجية ؟ فمشكلاتنا مع الأقليات غير العربية تنذر بالانفجار (المشكلة الكردية في الشرق ، والمشكلة البربرية في الغرب) ونحن عاجزون بثقافتنا العربية المفصولة عن الإسلام إلا عن شيء واحد وهو أن نستفز هذه الأقليات العرقية ونثيرها ضد مصالحنا الاستراتيجية .

❍ ❍ ❍

عرضنا فيما سبق عبر اعتماد الدراسات المستقبلية ، بعض المخاطر التي تتهدد مستقبل الثقافة العربية-الإسلامية ، وأهمها مخاطر العولمة ، وتناقص الوجود العربي داخل المحيط الإسلامي ، في

توازٍ مع مخاوف انتكاسه إلى البعد القومي المغلق في سعي خاطئ للحفاظ على الذات من الذوبان . ونواصل الآن في بيان هذه المخاطر ، مع طرح سريع لخطة طوارئ عاجلة للإنقاذ .

للعبرة : لقد انقلبت القومية الطورانية على الدولة العثمانية ، وانغلقت على ذاتها ، فنسي المسلمون جميعاً تركية المعاصرة ، وتركوها جاثية على عتبة أوروبا منذ ثلثي قرن ، تتوسل العضوية وتغرق في التضخم والديون! لقد انسلخت من الحرف العربي ، ففقدت بذلك كل تراثها لقرون ، وقطعت صلتها بماضيها وبمن حولها ، « فارتدت بضربة واحدة إلى تخوم البربرية من جديد » كما عبر المفكر الإسلامي الفذ علي عزت بيغوفتش في كتابه " البيان الإسلامي " . وها هي اليوم كريشة في مهب الريح الغربية ، تُسَخَّر في الحلف الأطلسي وتُصدُّ عن الاتحاد الأوروبي « أدعى إلى الموت ولا أدعى إلى المجالسة » كما عبر الشاعر المصري أمل دنقل عن حال عنترة بن شداد ، رامزاً به لحالنا اليوم! ومصير الأمة العربية ، إذا انسلخت ثقافتها عن بعدها الإسلامي ، لن يكون أفضل من حال الترك لا قدر الله!

ما وجه إقبال المسلمين على ثقافة عربية مسلوخة عن الإسلام ؟ .. إن كان وجه الانفتاح الإنساني ، فالأولى لمسلمي آسيا وإفريقيا الانفتاح على الغرب المتفوق . وإنما هناك وجه واحد للإقبال على الثقافة العربية لغة وفكراً ، ليس سوى الكلمة السواء التي هي الإسلام .

يتجلى هذا في مظاهر الحب الخاص الذي لدى المسلمين غير العرب وللغة العرب، حتى استشهد بعضهم في سبيل أن ينصروا العربية في عمق بلاد العجم أيام الاستعمار الشرس ، وحتى إن جمهورية الشيشان ما بين الحربين العدوانيتين الروسيتين عليها ، طبقت في نظام تدريسها - رغم الظروف السيئة - حصصاً للغة العربية بنفس عدد حصص اللغة الشيشانية (٦ ساعات في الأسبوع لكل منهما) . وهذا شيء يستحيل فهمه ولا تحققه إلا أن يكون عند الشيشانيين ارتباط إسلامي بالعروبة .

لقد أبرز " الناطق الثقافي " باسم البنتاغون ، المُنَظِّر السياسي الصهيوني صموئيل هنتنغون ، في كتابه المثير للجدل " صدام الحضارات " أن : « الثقافة هدف يموت الإنسان من أجله » ، وبيَّن أن زمن الصراع الإيديولوجي أو الاقتصادي قد ولى لصالح زمن الصراع الثقافي ، راسماً سيناريو الحرب العالمية المقبلة ، من أجل أهداف ثقافية ، في شكل تحالف إسلامي-كونفوشيوسي ، في مواجهة تحالف

عنوان المقال :مستقبل الثقافة الإسلامية إلى اين ؟	الكاتب :أبو زيد المقرئ الادريسي

مسيحي-يهودي! أكيد أن هذا السيناريو مصنوع من أجل توحيد القوة الغربية ، واستعدائها ضد المسلمين ، لكنه يعكس خلفية النظرة الغربية إلينا كأمة واحدة وثقافة واحدة ، مستهدفة على صعيد واحد من الخصم الشرس القوي .

من أجل تجنب خطر انغلاق الثقافة العربية على ذاتها بعيداً عن الإسلام ، مما قد يسهل ابتلاعها ويُسَرِّع انقراضها ، ينبغي أن يجيب المثقفون العرب العلمانيون ، أو الحداثيون كما يسمون أنفسهم ، على السؤال الحاسم : ما الموقف من النص القرآني ؟ إجابة قاصدة لا لبس فيها ، بعيداً عن المخاتلة أو التمويه .

لقد استلهم الحداثيون العرب ، التجربة الغربية التي قامت على مراجعة الموقف من قدسية النص الديني : التوراة والإنجيل ، وهي المراجعة التي أفضت للخروج من عصر الانحطاط الأوروبي إلى عصر التنوير والحداثة وعصر الثورة الصناعية عبر مخاض الصراع بين تيارين متدابرين نشأ في بداية القرن السابع عشر : التيار " الحداثي " والتيار " الأصولي " . الثاني تشبث بالقدسية الحرفية للنص ، وأصر على أنه كله من اللّه وأنه مقدس ولا يناقش ، في حين دعا الأول إلى مراجعة النص الديني على ضوء مستجدات البحث العلمي التي كشفت أن ما في الإنجيل من أخطاء تتعلق بالجغرافية والفلك والتاريخ والطب والكيمياء والعلوم البيولوجية وغيرها كثير وفادح ، ولا يمكن معه الاستمرار في مغالطة النفس باعتقاد أن الإنجيل مقدس وسليم .

وهكذا دعا الحداثيون العرب إلى مراجعة الموقف من القرآن الكريم ، وإعادة قراءته على ضوء نتائج العلم.

إلا أن هناك مفارقة غريبة في موقفهم هذا ، ففي حين حسم الأوروبيون الإشكال بمنهج العلوم البحتة : « إثبات كروية الأرض ودورانها حول الشمس مثلاً » اعتمد دعاة مراجعة الموقف من النص القرآني ، على الإيديولوجيا ، أو على " علوم إنسانية " مؤدلجة في أحسن الأحوال ، مُغَيبين نتائج العلم الحديث ، لأنها حسمت الموقف من القرآن إثباتاً وتبييناً ، أي في الاتجاه المعاكس لرغباتهم!

لنسأل دعاة إعادة قراءة النص : من منهم اعتمد في أبحاثه ثالوثية موريس بوكاي الضخمة : " الإنسان ما أصله ؟ " و " الكتب المقدسة في ضوء العلم " و " موسى وفرعون " ؟ وأين موقع

الاكتشافات الجيولوجية المقررة للنتائج القرآنية والبيولوجية والطبية وغيرها عند زغلول النجار وطارق سويدان ، وعبد المجيد الزنداني ، والبروفسور نجم الدين أربكان ، وغيرهم كثير ؟

ولنسأل من جهة أخرى : ما حصيلة المطالبة بإعادة قراءة النص القرآني على ضوء " العلم الحديث " ؟ يتمخض جبل الحداثيين في الموضوع عن خلاصة هزيلة ، نتلمسها خائبين لدى رائدهم محمد أركون ، على سبيل المثال : تطبيق منهج علم النفس أعطى أن وصف الجنة انعكاس لأحلام رجل الصحراء في الماء والظل والخضرة والمرأة الحسناء! وتطبيق علم اللسانيات أفضى إلى أن الخطاب القرآني ذكوري (رغم إثبات أحمد مختار عمر علمياً للعكس) . وتطبيق الانثروبولوجيا خلص إلى أن العبادات في الإسلام ، هي امتداد للطقوس السحرية لدى البدائيين!

ومن أجل تفعيل هذه الثقافة ، داخل محيطها الإسلامي ، نختم بهذه المقترحات العملية :

- ✧ وضع استراتيجية على اعتبار أن البعد الإسلامي للثقافة العربية بعد حاسم وحاكم .
- ✧ تفعيل دور المؤسسات الإسلامية مثل منظمة المؤتمر الإسلامي ، والإيسيسكو والأليسكو .
- ✧ تفعيل مقررات مجالس وزراء التعليم والإعلام والثقافة ، في هذا الإطار .
- ✧ تفعيل الترجمة بين اللغات الإسلامية واللغة العربية ، جسراً للتبادل الثقافي بين الشعوب الإسلامية .
- ✧ اعتماد الحرف العربي في اللغات الإسلامية ، وإرجاع ما شذَّ منها عن حظيرتها إليها .
- ✧ الكف عن التسويق الفلكلوري للثقافة العربية ، لأن هذا التسويق يعتمد على عناصر توقفت في الزمن!
- ✧ التمييز بين الثقافة وبين التقاليد الجزئية ، « فإن اللّه لم يكلفنا أن نبلغ إلى أمريكا وأستراليا عادات عبس وذبيان » ، كما كان يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه اللّه تعالى!
- ✧ اعتماد الدراسات المستقبلية الجادة .